الفصل الثاني

البدون

فحاحيل

ليس من المبالغة في شيء قول الناس لولا النفط لما كان هناك شيء في ممالك الصحراء في الخليج الفارسي. فقبل النفط لم يكن هناك ما يستحق الذكر، إلا أن المنطقة لم تكن خالية تماماً. فقبل النفط، كان هناك، بالطبع، الصحراء، والرمال، وبعض واحات النخيل، إضافة إلى عدد قليل، وقليل جداً من الناس. فبعد سنوات قليلة من اكتشاف النفط، تضاعف تعداد سكان المنطقة إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف في العام. ولم يقتصر النفط على إثراء المنطقة بل عمل على تغييرها تغييراً جذرياً.

وينطبق الحكم السالف على مدينة فحاحيل مدينة المغتربين المزدهرة في الكويت شمال شواطئ الخليج، فلولا النفط لما كانت هناك مدينة، فقط رقعة أرض زراعية خاملة على حافة واحة تقع على الطريق المؤدي إلى المملكة العربية السعودية. ويتذكر المسنون من سكان الكويت تلك الطريق جنوبي مدينة الكويت العاصمة، كممر عبر الصحراء لا تقصده سوى بعض الحافلات والجمال بين الحين والآخر، إضافة إلى خيمة بدوية كانت علامة على الطريق. إلا أن ذلك تغير مع النمو الذي شهدته البلاد بعد اكتشاف البترول في الأربعينيات. وخلال عقد من الزمان، تحولت فحاحيل ونمت فوراً إلى مدينة ذات خليط عالمي من سكان جاؤوا دفعة واحدة وعلى عجل، من كافة أقطار العالم. ويشبه هذا الخليط من المغتربين في تكوينه خليط المغتربين في بقية

مدن الخليج: فلسطينيون، لبنانيون، سوريون، مصريون، أردنيون، باكستانيون، وهنود، وحتى الأمريكان والإنجليز جاؤوا من أجل النفط، أو بالأحرى، جاؤوا من أجل الوظائف التبعية التي أوجدها اقتصاد النفط.

انضم إلى هذه الطفرة شخص يدعى محمد علي دوستن بلوشي في منتصف الخمسينيات، وأحضر معه زوجته الجديدة حليمة، تاركاً خلفه حياة صعبة، واحتمالات اقتصادية أصعب في موطنه بلوشستان[1]. ويحمل كل من محمد وحليمة جوازات سفر باكستانية، وكبقية سكان بلوشستان، فإن ذلك من مقتضيات الضرورة أكثر منه لاعتبارات الولاء. فبلوشستان هي منطقة صحراوية قاحلة تقع بين الحدود الاسمية بين إيران وأفغانستان وباكستان، ولا يعتبر سكانها أنفسهم مواطنين لأي دولة سوى دولتهم [بلوشستان]. وبلوشستان هي واحدة من أقدم المناطق التي سكنت على وجه الأرض. ولها ساحل يبلغ طوله ألف ميل على البحر العربي، وقطع سكانها البحر منذ قرون عدة، واشتهروا بكونهم تجاراً ومحاربين محترفين. كما اشتهر عنهم عبر العصور بأنهم مقاومون شرسون بغض النظر عمن كان سيحكمهم في تلك اللحظة. ونسوق بعض الأمثلة: لم يستطع جيرانهم الفرس تجاوز منطقتهم لأكثر من ألف عام؛ وذاق الإسكندر المقدوني أسوأ هزيمة له هناك؛ أما الحكام العرب الذين اجتاحوا المنطقة بعد وفاة النبي محمد، فقد نصحهم مستشاروهم بعدم التعرض لبلوشستان لأنك "إن أرسلت جيشاً صغيراً فسوف يهزم، وإن أرسلت جيشاً كبيراً فسوف يموت جوعاً وعطشاً"[2].

ولا يزال التنقل بين مناطق بلوشستان يتم دون الاعتراف بالحدود الوطنية التي تقطعها. ولد محمد علي دوستن في الجزء الإيراني من بلوشستان، وولدت حليمة في الجزء الباكستاني من الإقليم. وبصرف النظر عن الوعد الاقتصادي الذي جلبهما عبر الخليج الفارسي، فقد وجد محمد نفسه إماماً

لمسجد باكستاني في أحد أحياء مدينة فحاحيل على جانب طريق ساحلي يسمى مخيم البدو[3]. وهناك في ذلك المكان، أضيف اللقب التشريفي "شيخ" إلى اسمه اعترافاً بعلمه بالقرآن وقدرته على تدريسه. وفي ذلك المكان أيضاً نمت أسرته لتضيف إليها أربعة أبناء وثلاث بنات. وولد ابنه الثالث عام 1965 وسمي خالد شيخ محمد.

تحوّلت قطعة الأرض التي كانت تضم مسجد مخيم البدو، والذي لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر أقصى جنوب فحاحيل، إلى موقف سيارات تابع لمطاعم بيرغر كينغ على بعد بضع مئات من الأمتار عن أبراج مصفاة البترول الكويتية على ساحل شويبع. وربما ذهب المسجد؛ إلا أن نواياه ومقاصده لم تذهب: فما زالت لافتة الشارع المتاخمة لموقف السيارات تقول وبدون قيد أو شرط "السعادة في الإسلام".

عبر ميناء شويبع استطاعت الكويت الدولة الصغيرة – التي تحتوي على مخزون نفطي هائل لا يضاهيه سوى مخزون السعودية – أن تحوّل هذا المخزون إلى ثروة جعلت من الكويتيين من بين أغنى شعوب العالم وأكثرهم ترفاً. فبعد أن كانت حقوق الكويتي عند ولادته لا تتعدى نصيبه من إبل أبيه؛ يتمتع الكويتي اليوم بجملة من العطايا والهبات الحكومية تتمثل بالقروض السكنية، ومنح الزواج، والرعاية الصحية، والتعليم من الطفولة وحتى التعليم الجامعي، والدخل المضمون وقت التقاعد.

ويظهر الخلل الرئيس للحياة المزدهرة والغنية في الكويت في أن هذه الضمانات متوفرة حصراً لأقل من نصف سكان الكويت البالغ تعدادهم مليوني نسمة. فغالبية سكان الكويت هم من غير المواطنين، ولن يمكنهم في يوم من الأيام أن يكونوا كويتيين. وعلى الرغم من أن الحكومة خففت من قيود الحصول على الجنسية بعض الشيء في الأعوام السابقة، إلا أن معظم العمال

المهاجرين وأسرهم يبقون غير مؤهلين للحصول على الجنسية. وقد أدى هذا الوضع إلى إيجاد نظام طبقي يفصل بين من يحمل الجنسية وهم السكان الكويتيون الأصليون، ومن لا يحمل الجنسية من العمال المغتربين والذين يطلق عليهم في اللغة المحلية لفظ البدون.

والبلوش، وبغض النظر عن طول المدة التي يقضونها في الكويت، سيبقون دائماً من البدون. وتلك حقيقة سياسية عاشتها أسرة محمد علي دوستن وغيرهم من آلاف العمال المغتربين. وفي تلك السنين، كانت الكويت مركزاً للنشاط السياسي الفلسطيني، حتى إن منطقة من مناطق مدينة الكويت كان يطلق عليها اسم الضفة الغربية؛ وكان لمنظمة التحرير الفلسطينية مكتب في تلك المنطقة. وعمل ياسر عرفات هناك كمهندس مدني بعد حصوله على شهادة الهندسة من مصر. والواقع أن الفلسطينيين كانوا يشكلون غالبية طبقة المهنيين الوسطى في صفوف المعلمين والمهندسين. وهذا يشمل غالبية المعلمين في المدارس الكويتية ومنها تلك التي درس فيها أولاد الشيخ محمد.

كان الأولاد كلهم من الطلاب المتميزين وكانت لديهم ميول تقنية. والتحق أخواه الأكبر منه وهما زاهد وعارف بجامعة الكويت، حيث تزعم زاهد الحركة الطلابية التابعة لجماعة الإخوان المسلمين، وهي منظمة عربية جامعية متطرفة تتزعم المعارضة السرية في الشرق الأوسط. وكان حرم الجامعة أيضاً مركزاً لمجموعة تسمى التجمع الإسلامي للطلبة الفلسطينيين، وكانت تضم أعضاء أصبحوا فيما بعد قادة في الجماعة الفلسطينية حماس. عمل زاهد مع الفلسطينيين وأصبحت أهداف هذه المجموعة محل اهتمامه المتواصل[4].

شهد معظم الشرق الأوسط خلال فترة السبعينيات، في أعقاب هزيمة العرب عام 1967 ورحيل الرئيس المصري جمال عبدالناصر – الزعيم السابق للوحدة العربية اللادينية – تحولاً متعنتاً نحو الدين. فقد فشلت القومية

العربية اللادينية، وظهر الدين بوصفه البديل الأساسي لمصدر الهوية والهيبة الإقليمية. وبحسب تعبير شفيق غبرا، المحلل السياسي في جامعة الكويت: "كان ذلك أشبه ما يكون بفراغ هائل، ولم يكن بمقدور أحد أن يملأه أفضل من الإسلاميين المتنامين"[5]، وانتشر في المنطقة شعور بالخسارة الفادحة؛ وكأن العرب فقدوا فرصتهم الحقيقية باستعادة موقعهم، واللحاق بالعالم المتحضر.

ثم ما لبث أن وقعت حادثتان مزلزلتان هزتا العالم الإسلامي عام 1979: قيام جيش شعبي إسلامي بالإطاحة بنظام الشاة في إيران وإقامة جمهورية إسلامية مكانه؛ واجتياح الجيش السوفييتي أفغانستان المسلمة وإقامة حكومة شيوعية فيها. ألهب هذان الحدثان التخيلات والتصورات في الإسلام. وانتشرت الآراء السياسية والاحتمالات في كل مكان. وحتى مع عدم وجود وسائل الإعلام النافذة في كل مكان كما هي الحال في الغرب، تنتقل الأفكار بسرعة في العالم العربي عن طريق المشافهة. ففي الكويت، تنتشر المناقشات والآراء بفضل التصميم التقليدي للبيت الكويتي الذي يضم ما يسمى الديوانية، والموجودة في كل منزل كويتي، وفي الغالب في الطابق الأرضي وبمدخل منفصل عن مدخل المنزل، وتصمم هذه الديوانيات خصيصاً لتسهيل المحادثة والمناقشات. وتقابل ما كان يعرف قديماً في الولايات المتحدة بغرفة الجلوس. وتؤدي الديوانية وظيفة النادي للحي. إذ يتجمع الرجال، والرجال فقط، فيها كل مساء فيجلسون على الأرض ويتكئون على الوسائد، ويتناولون الشاي ويأكلون التمر، ويتحدثون، ويشاهدون مباريات كرة القدم، ويناقشون أحداث اليوم. وتمثل الديوانية بذلك محطات البث الإعلامي في الكويت.

ومن بين أبرز الموضوعات التي تجري مناقشتها في فحاحيل بين المغتربين الباكستانيين موضوع الحلم القديم المنسي باستقلال بلوشستان. والبلوش، كباقي المغتربين، يخططون. تزوجت ابنة الشيخ محمد واسمها حميدة من

محمد عبدالكريم، وهو من بلوشستان ويعمل في صناعة النفط في الكويت ولكنه أبى أن يترك سياسات بلوشستان خلفه[6]. وكان من الوطنيين المتحمسين، ونظراً لأنه مضى وقت طويل على الحلم الوطني البلوشي دون أن يتحقق، فإن المشاعر الوطنية البلوشية تتصف بنزعة عنيفة شرسة. ويتردد صدى المحاربين فيما وراء هضبة ماكران، وهي سلسلة الجبال التي تحمي عمق بلوشستان من البحر ومن الأعداء القادمين منه. وفي كثير من الأحيان، كانت جيوش مشيخات الخليج الفارسي مكونة في معظمها من البلوش. وحتى التهويدة التي تغنى للأطفال وقت نومهم تذكر الأولاد الصغار بأنهم في صراع دائم لتحقيق استقلال بلوشستان ومجدها، وأنهم في أي لحظة سيلبون نداء المعركة. وفي إحدى القصائد الشعبية البلوشية تقول:

عندما ينبت الشعر على شجر النخيل
ويصبح ابن آوى حارساً على الدجاج والطيور
وعندما ترعى الأسود مع الإبل في الحقول
ويصبح القطن مقاوماً للحريق
وتصبح الفيلة في حجم حبة الدخن
وعندما يصبح السمك قادراً على العيش دون الماء
عندئذ يمكن للمصالحة أن تتم
وإذا أمكن للحجارة أن تذوب في الماء، فيمكن إخضاع روح الانتقام
إلا أن الحجارة لا تذوب، وروح الانتقام لا تنطفئ في قلب البلوشي
فهي مشتعلة منذ قرنين من الزمان، وستبقى ذكية كسبع صغير في مقتبل العمر.

وفي فحاحيل، مزج عبدالكريم وطنيته البلوشية بالمذهب السلفي، وهو مزيج منشط[7]. وهو المذهب ذاته الذي كان يدعو إليه صهره وابن جلدته محمد علي دوستن.

كان خالد شيخ محمد أصغر بكثير من بقية أشقائه في الأسرة، وكان لأخته حميدة أبناء من عمره تقريباً. ودرسوا جميعاً في مدرسة واحدة، وكانوا يذهبون معاً إلى المدرسة المكونة من ثلاثة طوابق والمبنية من الحجر. وهي مدرسة للذكور فقط وتستوعب 1200 من الطلبة. وكانت المدرسة، وما زالت، تتسم بالحزم والانضباط: فالطلاب يلبسون زياً موحداً هو قميص أبيض وسروال رمادي، ويسير مدير المدرسة بين الصفوف حاملاً بيده عصاً من الخيزران يستخدمها في تأديب الطلبة المشاغبين. ويذكر الشيخ أحمد دبوس وهو صديق للعائلة ومدرس مادة التربية الإسلامية في المدرسة بأن "خالد شيخ محمد كان متميزاً في الدراسة وبخاصة في مباحث العلوم".

توفي الأب قبل أن ينهي خالد المرحلة الثانوية؛ وتولى زاهد وعارف مسؤولية متابعة دراسة أخيهم الأصغر، وساعدا كذلك في تثقيفه السياسي. وشارك خالد أيام شبابه في مخيمات الشباب الصيفية في الصحراء، وفي هذه المعسكرات يجري الحديث عن الجهاد بشكل دائم. وقد افتتن خالد بتلك الفكرة[8]. وتبع خطوات أخيه زاهد، وانضم في السادسة عشرة من عمره إلى جماعة الإخوان المسلمين[9]. وكان زاهد وقتها يعمل مدرساً في مدرسة تقنية. ويفكّر بالذهاب إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساته العليا، إلا أن الأسرة قررت أنها لا تستطيع تحمل مصاريف أكثر من ابن واحد للسفر خارج البلاد للتعلم، ونظراً لكونهم من البدون، فإنهم غير مؤهلين للاستفادة من المنح الحكومية السخية للدراسة. وفي خطوة تعكس الإيثار والكرم بالنظر إلى ما يعنيه ذلك بالنسبة لمستقبلهما الشخصي، قرر الأخوان الأكبران إرسال خالد إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته. وبقيا في الكويت يعملان لتأمين مصاريف دراسته. يقول دبوس: "لقد كان خالد عبقرياً وذكياً في كل شيء"، ويضيف، "منذ بداية دراسته العلوم، كان يطمح إلى الذهاب إلى أمريكا من أجل متابعة دراسته والحصول على شهادة الدكتوراه من هناك".

نورث كارولينا

التحق خالد بكلية تشوان، وهي كلية صغيرة تابعة للكنيسة المعمدانية في ولاية نورث كارولاينا، وبدأت مؤخراً بقبول أعداد لا بأس بها من الطلبة الأجانب. وتقبع تشوان بين حقول القطن ومزارع التبغ والغابات الكثيفة غربي ولاية نورث كارولاينا وعلى مقربة من الحدود الجنوبية لولاية فيرجينيا. تأسست الكلية عام 1848 لتكون مدرسة لتعليم بنات المنطقة تحديداً، ثم تحولت فيما بعد إلى كلية متوسطة تؤهل طلبتها لشهادة الدبلوم. وكانت أسس القبول فيها متساهلة، وقيمها متدنية، ويضمن محيطها الريفي الأخضر في منطقة مورفريزبورو المعزولة، حيث لا يوجد بار واحد أو حتى مطعم للبيتزا، أن من يأتي إلى هذه الكلية سيبقى مستقيماً وملتزماً في سلوكه. وقد مرت أجيال من القساوسة والمعلمين، وغيرهم من وجهاء المدينة من خلال أروقة كلية تشوان.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدأ خريجو الكلية من البعثات التبشيرية في الخارج بتوجيه الطلبة الأجانب إلى كليتهم. وفي الثمانينيات كانت غالبية الطلبة الأجانب فيها من الشرق الأوسط. فقد انتشر في الخارج أن كلية تشوان لا تتطلب اجتياز أي امتحان للغة الإنجليزية كشرط للقبول فيها، وهو ما تتطلبه غالبية الكليات من الطلبة الأجانب. وكان الطلبة الأجانب يدرسون فصلاً دراسياً أو اثنين لتحسين لغتهم الإنجليزية، ثم يتم تحويلهم إلى الجامعة. تقدم محمد بطلب التحاق إلى الكلية بوصفه باكستاني الجنسية عقب حصوله على شهادة الثانوية العامة من مدرسة فحاحيل الثانوية عام 1983. وذكر للمسؤولين في الكلية بأنه سمع عن كلية تشوان من أصدقائه في الكويت. ودفع كامل رسوم دراسته في فصل الربيع والبالغة 2.245 $ في اليوم الذي حصل فيه على القبول، والذي وافق العاشر من يناير/ كانون ثاني عام 1984.

يقول معارف خالد شيخ بأنه اندمج ثقافياً في المجتمع العربي والكويتي، وكان يصعب تفريقه عن باقي الكويتيين. ويذكر بدوي هندية، وهو فلسطيني

من فحاحل وكان يدرس في تشوان مع خالد شيخ في ذات الوقت: "كان خالد شيخ يتحدث العربية بطلاقة باللهجة الكويتية، ولكنه كان يقدم نفسه على أنه باكستاني"، ويضيف هندية،" وكنا نعلم أنه بلوشي"[10].

وفي عام 1984 كان من بين الطلاب الذكور في تشوان والبالغ عددهم 650 طالباً حوالي 50 من الشرق الأوسط، ومن بينهم عدد لا بأس به من فحاحل والكويت. وكان الطلاب المحليون يستهزئون بهم، وينادونهم بلفظة "آبي دابي" وهي عبارة عن تحريف استهزائي لاسم إمارة أبو ظبي في الإمارات العربية المتحدة. وكان الطلاب العرب موضع النكت والتهكم والمضايقة، وبخاصة في الفترة التي شهدت تصاعد المشاعر العدائية ضد المسلمين التي تلت حادثة احتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران عام 1979 [11].

يقول السكان المحليون بأن الطلبة الأجانب كانوا يشكلون عصبة منعزلة. ويذكر جون فرانكلين تيمبرليك وهو ضابط شرطة في مورفريزبورو ومن خريجي كلية تشوان عام 1984: "ظهروا وكأنهم يقضون معظم أوقاتهم في الصلاة. وكنا نسمعهم يرددون ما يشبه الترانيم. ولم نكن نفهم شيئاً مما يقولون. وفي بعض الأحيان كنا نعود إلى البيت متأخرين في عطلة نهاية الأسبوع، بعد تناول بعض البيرة. فكنا نجدهم يصلون"[12]. وكان يتوجب على الطلبة العرب حضور قداس مسيحي مرة في الأسبوع عدا عن صلاتهم الخاصة.

سكنت مجموعة كبيرة من الطلبة الشرق أوسطيين في باركر هول، وهي بناية سكنية مرتفعة للطلاب مبنية من الطوب وتشرف على بحيرة فان المجاورة للحرم الجامعي، وهي منتجع مائي هادئ على شكل هلال ترتاده الطيور المهاجرة والأفراد الراغبون بالاستمتاع بالمنظر الخلاب. وكانت مجموعات من الطلاب العرب تتجمع في غرفة السكن في الطابق الخامس من البناية ويتبعون ما يشبه المراسيم: يطبخون دجاجة مع الأرز ويوزعونها على جميع

الحضور ثم يصلون، ويتحدثون قبل أن يصلوا ثانية. وبحسب التقاليد الشرق أوسطية، كانوا يتركون أحذيتهم خارج الغرفة في الممر. وكان يصعب على بعض الطلبة الأمريكان مقاومة فكرة اختلاس هذه الأحذية التي كانت توجد فيما بعد عائمة في البحيرة المجاورة. ومن المكائد الأخرى التي استخدمت ضد الطلبة العرب ملء برميل القمامة من سعة 55 غالون بالماء وإسناده بشكل مائل على بوابة "الآبي دابيز" وطرق الجرس ثم الفرار. وعندما يفتح أحد الباب، ينكفئ البرميل وتغمر المياه الغرفة.

أتم خالد شيخ المواد التحضيرية للهندسة التي كانت شائعة بين الطلاب الأجانب؛ وحصل على علامات جيدة، ولكنها لم تكن استثنائية، وترك الكلية بعد فصل واحد[13]. وفي صيف عام 1984 التحق بكلية الهندسة في جامعة نورث كارولاينا التقنية والزراعية والواقعة في غرينزبورو، وهي جامعة تعتبر من الناحية التاريخية جامعة للسود تقع في سفح هضبة بيدمانت في وسط الولاية. وعلى العكس من كلية تشوان المرممة، كانت جامعة نورث كارولاينا للتقنية والزراعة ذات ماض حافل بالنشاط السياسي. فقد تخرج فيها زعيم الحقوق المدنية القس جيسي جاكسون، وفي الأول من فبراير/ شباط من عام 1960، أقام طلاب الجامعة أول اعتصام في محلات وولورث وسط مدينة غرينزبورو احتجاجاً على سياسات الفصل العنصري. وفي الوقت الذي التحق فيه خالد شيخ بالجامعة كان تشكيل الطلبة قد شهد تنوعاً ملحوظاً، إذ كانت فيها مجموعات لا بأس بها من البيض، ومن ذوي الأصول الشرق أوسطية.

يعد التعليم الجامعي في الخارج مرحلة انتقالية بالنسبة للغالبية العظمى من الطلاب الشباب في الشرق الأوسط. وفي العادة تشكل هذه التجربة بداية تعرض طويل الأمد للحياة الغربية. بعضهم يخرج من هذه التجربة مشمئزاً مما شاهده. وبعضهم الآخر يفتتن وينبهر بما وجد إلى أبعد الحدود.

يقول خليل عبدالله أحد خريجي جامعة نورث كارولاينا للتقنية والزراعة عام 1987: "كنا جميعاً متحمسين للذهاب إلى الولايات المتحدة. فقد شاهدنا الأفلام، وسمعنا الأغاني، وكنا في أشد الشوق إلى الذهاب"[14].

انضم إلى خالد الشيخ في غرينزبورو ابن أخته عبدالكريم عبدالكريم الذي غادر الكويت في ذات الوقت الذي سافر فيه خالد شيخ، ولكن عبدالكريم توجه إلى أوكلاهوما ليمضي فيها فصلاً دراسياً قبل الالتحاق بجامعة التقنية والزراعة ليتخصص في الهندسة الصناعية. وكان الاثنان ضمن المجموعة الشرق أوسطية في قسم الهندسة. وهو تخصص طبيعي للطلبة القادمين من دول مصدرة للنفط.

ويميل الطلبة القادمون من الشرق الأوسط عادة إلى العيش خارج الحرم الجامعي في تجمعات منزوية مثل يوركتاون و كولونيال. وقلما يأكلون في الكافتيريا، وغالباً ما يتغيبون عن المناسبات المنظمة. وبينما تتهيأ مجموعات طلبة "الزراعة" للذهاب إلى مباريات كرة القدم الأمريكية يوم السبت، يقوم الطلاب الأجانب بتنظيم مباريات كرة القدم في الحديقة العامة.

ويقول كوينتين كلاي: "كانوا يمضون أوقاتهم معاً"،[15] ويضيف، "وبالنسبة لغالبيتهم، كانت لغتهم الإنجليزية تعيسة مطلقاً. اشتركت مع أحدهم [خالد شيخ] في مادة تصميم متقدم. وفي الواجبات الدراسية المشتركة كان قدري أن أشترك مع واحد منهم فيها دائماً. وكان ذلك يسبب لي الكثير من الإحباط. وبالنسبة للموهبة، كنت أتساءل كيف استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى هذه المرحلة من التعليم الجامعي".

ويستذكر سامي زيتاوي وهو أحد الكويتيين، تجمع الطلاب العرب يوم الجمعة، وهو اليوم المقدس لدى المسلمين، قائلاً: "كنا نعيش حياة جامعية: كنا نجتمع معاً ثلاثة أو أربعة مرات في الأسبوع، نشاهد المباريات، نتحدث، نشرب

الخمر،..كنا نذهب إلى المزارع المجاورة نشتري خروفاً أو ماعزاً، نذبحه بالسكين... وكل جمعة يقوم أحدنا بتجهيز طعام العشاء: خمسة عشر، أو عشرين، أو خمسة وعشرين طالباً"[16].

وكانت المناقشات السياسية واقعاً لا مفر منه. وفي العام الذي سبق قدوم خالد الشيخ، تظاهر الطلبة في غرينزبورو للاحتجاج على المجزرة التي تعرض لها الفلسطينيون في مخيمات اللاجئين في لبنان عام 1982 – على الرغم من أن الزائرين العرب تعودوا على كتم انتقاداتهم – وكان الطلبة القادمون من الشرق الأوسط أبعد ما يكونوا عن التوحد. فالفروق السياسية والثقافية وتطبيقهم للإسلام، كل ذلك أضعف تماسكهم.

ويذكر محمود زبيد، وهو مهندس معماري كويتي: "بشكل عام، ما تشاهده هناك كان انعكاساً لمجتمعاتنا الصغيرة في الوطن الأم"، ويتابع، "ووجد كل شخص نفسه في المحيط الأكثر راحة بالنسبة له ... والمشكلة هي أنه لم تكن هناك جالية عربية. كان هناك كويتيون، فلسطينيون، أردنيون. مجموعهم حوالي 200 إلى 300 شخص، إلا أنهم كانوا يخالطون أبناء جنسيتهم فقط. هذه مسألة واحدة. لقد كنا نخالط الكويتيين فقط. فكان مجتمعنا الذي نعيش فيه، من بين المئتين أو الثلاثمئة، مكوناً فقط من حوالي عشرين شخصاً فقط"[17].

وكان هناك حاجز إضافي يفصل بين الطلبة الكويتيين المبعوثين على حساب الدولة من أمثال زبيد وبين الطلبة من أمثال محمد شيخ: فالبلوش والفلسطينيون كانوا يعتمدون على دعم أسرهم لهم أو على بعض المنح القليلة لتغطية الرسوم وكلفة الإقامة. إلا أن الدين كان هو الخط الفاصل الحقيقي. ففي كل تجمع كبير للطلبة الشرق أوسطيين في الجامعات الغربية، لا بد أن تنشأ فيها مجموعات دينية محافظة. ويحاول أفرادها الذين ينصبون أنفسهم

مراقبين على الأخلاق أن يفرضوا الالتزام بالقيم الإسلامية والابتعاد عن شرب الخمر والنساء والمخدرات وغيرها من المعاصي. ويطلقون لحاهم تعبيراً عن التزامهم الديني ويصلون خمس مرات في اليوم في المصليات التي يقيمونها في السكن، أو في المراكز المخصصة لذلك في الجامعة. ويقومون بالدعوة بين زملائهم الطلبة.

ويتذكر وليد غملاس، وهو خريج جامعة التقنية والزراعة في الثمانينيات، قائلاً: "كنا نسميهم الملالي، وبطبيعة الحال كان الطلاب في غرينزبورو منقسمين إلى فئتين: الملالي وغير الملالي"[18].

وكان محمد شيخ بكل تأكيد ضمن فئة الملالي. ويذكر أحد الطلبة عندما كان في تشوان، أن محمد شيخ وبخه ذات مرة على أكله الخنزير. وفي جامعة التقنية والزراعة وجد محمد شيخ ورفاقه من المؤمنين الحقيقيين الكثير مما يضايقهم. فبعض الطلبة العرب كانوا يشربون الخمر، ويرتادون البارات، ويغازلون الفتيات وأكثر من ذلك، وينغمسون في الملذات التي لم تكن متوفرة لهم في بلدهم الأصلي. وبعضهم كان يتنقل في حرم الجامعة بسيارات البورشا والمرسيدس. وكانت مجموعات المرح واللهو تحاول عدم المجاهرة برعونتها خوفاً من وصول الأخبار إلى أسرهم في الوطن الأم. إلا أن الملالي كانوا يرون ذلك ويمارسون ضغوطاً مباشرة وغير مباشرة. فكان الإسلاميون في غرينزبورو وغيرها من الجامعات الأمريكية يحرصون على استقبال الطلاب الجدد في المطار. ويتذكر غيملاس كيف أن "ثلاثة أشخاص ملتحين" تعرضوا له ولأحد أصدقائه الكويتيين عندما كانوا في انتظار حقائبهم في مطار تولسا في أوكلاهوما، حيث درس غيملاس قبل أن يلتحق بجامعة التقنية والزراعة. واصطحب هؤلاء الثلاثة غيملاس ورفيقه إلى شقة تم تحويلها إلى مسجد، وعندما أشعل غيملاس الذي كان منهكاً من السفر سيجارته لم يتأخر ثلاثتهم

في توبيخه على ذلك. وإذا فاتهم استقبال الطلبة الجدد في المطار فإن الملالي الملتحين يبحثون عنهم في الحرم الجامعي. وفي بعض الأحيان قد تلقى خطواتهم هذه الرفض؛ إلا أنها وفي كثير من الأحيان تجد الترحيب والامتنان من الطلبة الجدد الضعاف الذين يشعرون بالضياع في عالمهم الجديد ويشدهم الحنين إلى الوطن.

ويقول زبيد: "في يومك الأول في غرينزبورو، لا تعرف أحداً من الناس، وربما لا تجيد اللغة الإنجليزية بعد، فيلاقونك في المطار، ويساعدونك في بدء حياتك"[19].

وعبّر أحد الطلاب الكويتيين عن عدم تجاوبه معهم بأسلوبه الخاص: فكان يضع زجاجة الويسكي على الطاولة عندما يأتي الملالي، تماماً كما كان يوضع الصليب لطرد دراكولا مصاص الدماء. وقد أقلق هذا التأثير المتنامي للطلبة المتدينين العواصم العربية. فحكام الدول العربية المستبدون ليسوا حريصين على تقديم البعثات الدراسية والتدريب لأشخاص يمكنهم أن يصبحوا آيات الله كي يعودوا إلى بلادهم لقيادة ثورة إسلامية. كما أن احتمالات التدين في الخارج لا تروق للآباء غير المتدينين الذين يرسلون أبناءهم إلى الخارج لتوسيع أفقهم الفكري.

وقد تلجأ الحكومات العربية إلى إلغاء بعثاتها الدراسية إلى الولايات المتحدة إذا برزت لديها مخاوف من تنامي أي نوع من التآمر الديني السياسي لدى المبعوثين. وعبّر أحد المسؤولين الحكوميين عن بالغ دهشته ليس من عدد الطلاب الذين تغيروا، بل من نوعية الطلاب الذين تغيروا، قائلاً: "تعود إلينا أعداد كبيرة من طلابنا الذين درسوا في الولايات المتحدة وقد تحولوا إلى متطرفين. وأنا لا أتحدث عن الطلبة الذين كانوا متدينين ثم تحولوا إلى أصوليين بعد أن عادوا من هناك. لا، إنني أتحدث عن الأشخاص الذين كانوا متحررين"[20].

"لماذا ينقلب هؤلاء إلى التدين؟ يحدث ذلك هناك"، بحسب رأي أحد الطلاب الكويتيين[21]. "عندما نتغرب، فإننا نكون ضعافاً، وعرضة للخطر. ولهذا السب فإننا نتجمع في مجموعات - لكي يحمي بعضنا بعضاً. وينشط المتدينون في دعوة الطلبة الجدد. لماذا يكون ذلك سهلاً؟ إن السر في اعتقادي يكمن في المواقف السياسية أكثر منه في الدينية".

ويصف الطلاب الذين يتذكرون محمد شيخ باطراد بأنه شخص مجتهد، وقليل الخلطة، وأنه نذر نفسه للمكتبة ولله، ومع ذلك فهو ودود بشكل عابر، ويمكن أن يشارك الآخرين في ضحكة. ويذكر فيصل منيفي، الذي درس الهندسة الميكانيكية،: "كل ما عرف عنه هو أنه كان في المسجد دائماً"[22].

أما زيتاوي فيقول: "كان خالد شيخ منعزلاً، ... كنا نلتقي في مطعم بيرغر كينغ لتناول الغداء أو القهوة. وهذا هو كل ما نفعله عندما نذهب إلى الخارج... كان دائماً مؤدباً. لم يكن شخصاً هزلياً، ولكنه عندما يتحدث إليك فإنك تشعر وكأنه يتبسم. لم يكن فظاً أو أي شيء من هذا القبيل"[23].

كما لم يصدر عن محمد شيخ أي كلام مناهض للغرب أو معاد للولايات المتحدة. ويقول هندية الذي كان يعرف محمد شيخ في تشوان و غرينزبورو: "لابد أن شيئاً ما حدث فيما بعد ليسبب تلك المشاعر"، وأضاف: "إنني لا أذكر أني سمعته يقول شيئاً كهذا"[24].

وسواء أقال شيئاً أم لم يقل. فإن شيئاً ما قد حدث. إذ انتقل أخوة خالد شيخ الثلاثة وهم عارف وزاهد وعابد إلى بيشاور في باكستان لدعم الجهاد في أفغانستان. وفي إحدى إجازات الصيف، انضم خالد إليهم مرة واحدة على الأقل. ويقول أحد ضباط الأمن الكويتيين: "لقد أثرت هذه الزيارات فيه"[25]. كما أثرت فيه أيضاً إقامته في الولايات المتحدة.

يقول دبوس، وهو أحد الأساتذة الذين درسوه في الثانوية: "عندما يذهب إلى هناك [الولايات المتحدة] فإنه يرى أن الأمريكيين لا يحبون العرب ولا الإسلام"، ويضيف:

"سألته: - لماذا -

فرد قائلاً " - بسبب إسرائيل -، - إن غالبية الأمريكان يكرهون العرب بسبب ذلك - كان طالباً عادياً جداً قبل ذلك. مؤدباً، سمحاً، مبتسماً دائماً. وعندما عاد من أمريكا، أصبح شخصاً آخر. أصبح حزيناً. لا يتكلم. كان يجلس في مكانه فقط.

فسألته، - ما الذي حدث؟ -.

"فرد قائلاً: - بسبب ما قلته عن كره الأمريكيين للإسلام -.

"فتحدثت إليه، محاولاً إقناعه بتغيير رأيه، وقلت له بأن من تتحدث عنهم هم فئة قليلة من الأمريكان. ولكنه رفض التحدث معي حول ذلك ثانية. كان راسخاً في قناعاته. حدث هذا عندما قدم في إجازة الصيف في أثناء الدراسة. وعندما سمعت ذلك قلت له يجب أن نلتقي ثانية.

"فقال: - لا، إنني مقتنع بقوة بأفكاري. ولا تتحدث إلي ثانية حول هذا الموضوع -[26]".

وفي نهاية عام 1986، وبعد سنتين ونصف، أتم خالد شيخ محمد مقرراته الدراسية. وتخرج هو وابن أخته عبدالكريم في 18 ديسمبر/ كانون الأول. وكان خالد شيخ واحداً من بين ثمانية وعشرين خريجاً في قسم الهندسة الميكانيكية، كان ثلثهم تقريباً من الشرق الأوسط. ولم يكن لخالد شيخ صورة في الكتاب السنوي.

جلال أباد

"بدأ المجاهدون الأصليون عملهم في بيشاور القديمة بقليل من المال في الأيام التي سبقت الدعم السعودي ودعم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية"، كما يقول الصحفي الباكستاني يوسفزاي. "إلا أنهم قاموا فيما بعد باستئجار المنازل في بلدة الجامعة أرقى الأحياء في بيشاور وأكثرها رفاهاً".

والغريب في الأمر أن أحياء بلدة الجامعة مبنية على النمط الغربي. أما بيشاور القديمة فقد كانت عبارة عن ممرات ملتوية ومتشابكة، تنتشر فيها البازارات المليئة بالروائح، والأصوات، والأشخاص، من وسط آسيا. وتعلوها طبقة كثيفة من الغبار والدخان العادم وأفران الخزف. ويتخلل المكان شعور بأن التاريخ لم يصنع هنا وحسب، بل ما يزال حاضراً. وفي المقابل، كانت بلدة الجامعة نظيفة ومستطيلة، حيث تمتد على شبكة مليئة بالتجمعات السكنية المسورة والمكونة من شقق ذات ثلاثة طوابق مبنية من الجص الذي يشبه الجص المستخدم في الشقق السكنية في ضواحي كاليفورنيا. كانت الفلل الجديدة مملوءة بالمقاتلين العرب وبعدد أكبر من أفراد الميليشيا المساندة.

اعتادت الجيوش أن يتبعها تجار الجنس والطعام وغيرها من وسائل الترفيه والتسلية؛ والجيوش الحديثة – وحتى تلك المؤلفة من تجمعات العوام كالمجاهدين، لا بد من أن يتبعها عمال الخدمات الاجتماعية كالمومسات. وتشكل الحرب الأفغانية المثال الأبرز على ذلك نظراً للصفة الدولية لجنودها وتمويلها. فبعد تجار السلاح، كانت الأعمال الخيرية هي ثاني أكبر صناعة في بيشاور خلال الحرب. حيث كان في البلدة أكثر من 150 منظمة وجمعية خيرية تعنى بخدمات اللاجئين والتطوير تحتفظ بمكاتب وفروع لها في البلدة. وكانت هذه الجمعيات مقسومة بالمناصفة بين الممولين العرب والغربيين. وتطلب هذا العدد الكبير من الجمعيات وجود ثلاثة مكاتب لتنسيق وتنظيم أعمالها. وكان

هناك الشيء الكثير ليتم إنجازه. فقد كانت أفغانستان وقت الاجتياح السوفييتي تضم خمسة عشر مليون نسمة. وعلى مدار عقد من الزمان تقلص ذلك العدد إلى النصف. وكان على النصف الآخر أن يذهب إلى مكان ما، فلجأت غالبيتهم إلى باكستان عبر الحدود الجبلية. ويوجد على طول الحدود الباكستانية الأفغانية من الناحية النظرية ثلاثة معابر رسمية بين الدولتين. إلا أنه كان هناك المئات في واقع الأمر، لدرجة أن الحدود بين الدولتين لم تكن أكثر من خط وهمي على الخريطة.

وكان من بين أكبر وكالات الإغاثة جمعية خيرية كويتية تسمى لجنة الدعوة الإسلامية. وفي وقت من الأوقات، كان يعمل في هذه الوكالة أكثر من 1200 موظف في باكستان وحدها. وكانت تنفق قرابة الأربعة ملايين دولار في المنطقة سنوياً[27]. وكان من بين نشاطاتها إدارة مستشفى بسعة 200 سرير في بيشاور، وآخر داخل أفغانستان، إلى جانب أعداد كبيرة من المراكز الصحية. كما أنها موّلت وجهزت عشرين مركزاً لتحفيظ القرآن. وكان المدير الإقليمي لهذه اللجنة في بداية عام 1985 شخص يدعى زاهد شيخ محمد، الأخ الأكبر لخالد شيخ محمد. وكان زاهد شيخ ترك وظيفة التدريس ليعمل في اللجنة عام 1983 في الكويت، ثم أرسل إلى بيشاور بعد عامين من عمله في اللجنة. وأصبح زاهد شخصية ذات أهمية بوصفه رئيساً لواحدة من كبريات المنظمات الخيرية في المدينة. وتعرف بحكم موقعه هذا على الدبلوماسيين المحليين، وزعماء الفصائل الأفغانية؛ وعندما جاء الساسة الباكستانيون إلى المدينة كان زاهد يرافقهم ويشاركهم[28]. عمل زاهد من مكتب يقع على شارع أرباط في بلدة الجامعة. ومع أن غالبية هيئات الإغاثة والجمعيات الخيرية العربية كانت تحوم حولها الشكوك بأنها واجهات صورية لتوزيع أموال الجهاد، إلا أن مكتب اللجنة الذي يرأسه زاهد لم يكن من بين تلك المشتبه بها. فكل ما قدمته

للمقاومة هي أنها أنفقت الملايين على المدارس، والمراكز الصحية، ونشر الصيغة الكويتية من الإسلام السلفي. وكانت هيئات الإغاثة العربية تقوم بأعمال مشابهة، وانتشرت المدارس الدينية ليس فقط في بيشاور، بل في المناطق التي تخضع لسيطرة المقاومة داخل أفغانستان.

وبعد أن أنهى دراسته الجامعية في نورث كارولينا، لم يرجع خالد شيخ إلى الكويت للإقامة فيها بحسب ما تقوله السلطات الكويتية، ولكنه التحق بدلاً من ذلك بإخوته في بيشاور، حاملاً في قلبه مشاعر جديدة من الكراهية للولايات المتحدة. كما أن أخاه الآخر عابد الذي كان يعمل مدرساً للعلوم الشرعية في قطر، التحق هو الآخر ببيشاور. وقال رجل كان يعرفهم ثلاثتهم بأن زاهد الأخ الأكبر كان أرجح الثلاثة عقلاً؛ وكان عابد أكثرهم تطرفاً، وخالد كان أكثر شبهاً بعابد[29]. وكان الأخوة الثلاثة ملتحون ويلبسون الكوفية المبلطة. وكان زاهد وخالد قصيري القامة شيئاً ما ممتلئي الجسم. وكان الاثنان متشابهان في الشكل لدرجة يسهل معها الخلط بينهما برغم الفارق في السن.

عمل عابد في الصحيفة التابعة لعبد[رب] الرسول سياف في بيشاور، ودرّس خالد في جامعة الدعوة والجهاد التابعة لسياف، على حد قول أحد الأصدقاء[30]. كما عمل خالد أيضاً في مخيم جلوزي للاجئين. فقد جذب سياف رجالاً من كل أنحاء العالم الإسلامي، وليس فقط من العرب. وكان المسلمون القادمون من جنوب شرق آسيا يتدربون حصرياً معه. وتعرف خالد شيخ على عدد من مجاهدي جنوب شرق آسيا بمن فيهم شخص من إندونيسا اسمه حنبلي، وبقي صديقاً لخالد لخمسة عشر عاماً لاحقة.

استقر الأخوة الثلاثة في بيشاور. تزوج خالد من امرأة تعرف عليها في مخيم جالوزي. وأصبحوا جزءاً من جالية عربية صغيرة شبه دائمة، تضم عزام، ومؤسس الجهاد الإسلامي أيمن الظواهري، وابن لادن، الذي يأتي

ويغادر مع زوجاته وأبنائه بطائرته الخاصة. ويقول شخص ينتمي إلى الحركة[31]: "كان من السهل رؤية الشيخ أسامة الذي كان يعيش في حياة أباد في بيشاور". وكان يزور بيشاور في فترات متقطعة في منتصف الثمانينيات عندما كان يمضي الكثير من الوقت خلف الحدود للقتال في أفغانستان. وقَدِم الظواهري [لكي يبقي فيما بعد] عام 1985. ونقل ابن الادن زوجاته وأبنائه وأتباعه إلى بيشاور عام 1986، وسكن هناك حتى أكتوبر/ تشرين أول من عام 1989. وخلال تلك الفترة زار السعودية عدة مرات في السنة".

عمل عابد وخالد مع عزام عن قرب؛ وكان خالد يشرف على توزيع المساعدات والإمدادات العسكرية[32]. وكان محل إعجاب كل من حوله بذكائه وفطنته وسعة معرفته بالسياسات العريضة وتداعيات الحرب[33]. وكان الإخوة يحضرون اجتماعات قادة الأحزاب الأفغانية: برهان الدين رباني، قلب الدين حكمتيار، وسياف. كان معظم العرب، باستثناء ابن لادن الذي كان يعد نفسه مستقلاً عنهم، يؤدون الصلاة في مسجد صغير يسمى مسجد سبع الليل وسط حي مزدحم في نهاية ممر متصل بشارع أرباط، ولا يبعد كثيراً عن مكاتب سياف وزاهد. وتوجد في هذا الحي المخابز، ومحلات بيع اللحوم الحلال، ومحلات الحياكة، وبالطبع وكلاء السفر لتأمين تذاكر الرحلات الجوية إلى الوطن الأم. والسبب في ظهور التأثير العربي على بيشاور هو أن العرب الذين قدموا إليها لم يتجاوزوا حدود المدينة؛ فغالبيتهم لم تشاهد ساحة المعركة. وعندما شاركوا في القتال كانت مشاركتهم ضئيلة. وكانوا في نظر الأفغان ليسوا بأكثر من شر لا بد من تحمله في سبيل الحصول على الأموال التي تلحقهم. وقد قال برهان الدين رباني أحد قادة المقاومة: "كنت ضد قدوم المتطوعين العرب للقتال معنا. وعندما جاؤوا إليّ قلت لهم كان عليكم أن لا تأتوا. وكان الأولى بهم أن يبقوا في أوطانهم ويتبرعوا بثمن تذكرة السفر لدعم كفاحنا. فالعرب ليس لديهم خبرة في القتال. لقد جاؤوا من الصحراء، لم يعرفوا الجبال، ولم يكن لديهم دراية بتقاليدنا وثقافتنا"[34].

ويتفق أحمد والي مسعود، شقيق قائد تحالف الشمال أحمد شاه مسعود، مع هذا الرأي قائلاً: "إنني لا أعرف إن كان المقاتلون العرب مقاتلين جيدين أم سيئين، لم يشاهدهم أحد، لقد كانوا شرذمة قليلة"[35].

كما وجد بعض الأفغان في الإسلام الذي يمارسه عرب الصحراء شيئاً غريباً، ولم يرق لهم أن يحاضر فيهم أحد حول الطريقة الصحيحة لأداء العبادة. وكانوا ينظرون إلى العرب على أنهم متعجرفين.

يقول إيستهام القنصل الأمريكي في بيشاور: "كانت بعض الأسر السعودية والخليجية ترسل أبناءها الصغار إلى أفغانستان في الصيف في رحلات مدرسية"، ويضيف: "كانوا يرسلونهم إلى معسكرات التدريب، ويقدم لهم السلاح ويتم إرسالهم إلى أفغانستان. وكان الآباء قلقون على أبنائهم حتى الموت، فهم لا يريدون لهم الموت هناك، وكان هؤلاء أبناء المتبرعين. ولم يكن أمام المجاهدين خيار سوى قبولهم. وهو ما كان يسبب حنق الأفغان؛ لأن العرب لديهم شعور بالاستعلاء والفوقية"[36].

كان نقص الفرص أمام العرب للمشاركة في ساحة المعركة نقطة نقاش وجدال مستمر بين المجاهدين العرب. كما أدى الأسلوب الذي اتبعه القادة الأفغان في توظيف المتطوعين العرب – أو بالأحرى الأسلوب الذي حيدوا فيه مشاركتهم – إلى استياء العرب من تلك السياسات. كما تأذى كثير من العرب، ومنهم ابن لادن من إنشاء وحدات قتال مستقلة للمجاهدين العرب. وكان عبدالله عزام الذي كان يتمتع بتأثير كبير على المجاهدين العرب، يصر على أن من واجب العرب أن يفعلوا ما يطلبه منهم الأفغان، فالحرب هي حربهم قبل كل شيء وليست حرب العرب. وكان عزام يرى أنه وإلى أن تنتهي المهمة في أفغانستان بإخراج الملحدين منها، فإن مكتب خدماته سيبقى كما هو للخدمة. إلا أن مشاعر الاستياء تزايدت وبدأ ابن لادن بالاستقلال بمجموعته. وفي

سنته الأولى في بيشاور، كان عمله مقتصراً على تقديم العون المالي وجمع التبرعات. ومع بداية عام 1985، قام ابن لادن بجلب المعدات الإنشائية الثقيلة من المملكة العربية السعودية وبدأ ببناء مخيمات التدريب وشق الطرق والمطارت خلف الحدود في أفغانستان[37]. وفي عام 1987، اشترك هو ومجموعة صغيرة من المقاتلين العرب بمن فيهم عزام، وخالد شيخ محمد ورفيقهم الأفغاني سيّاف في معركة مع القوات الروسية لاستعادة السيطرة على قرية جاجي[38]. وصمد العرب لعدة أسابيع، وتخلى السوفييت في النهاية عن القتال. وكان هذا النصر هو الأساس الذي بنيت عليه أسطورة ابن لادن كمقاتل شرس وفارس مغوار في ميدان المعركة[39]. وبالتأكيد كان ابن لادن يرى نفسه كذلك. فكان يروي القصص حول معركة عرين الأسد، كما كان يسميها أحياناً، طوال عقد من الزمان[40]. وأسرف الصحفيون العرب في نقل تفاصيل المعركة مبرزين دور ابن لادن. وتقلد عدد كبير من الرجال الذين شاركوا في معركة جاجي أدواراً كبيرة فيما بعد في منظمة القاعدة. وأصبح ابن لادن يعتقد بعدها أن هناك هدفاً يتجاوز أفغانستان، جهاداً عالمياً، وأنه يتحتم عليه قيادة هذا الجهاد. وبدأ يعد نفسه لتلك المهمة.[41].

وفي النهاية، وعلى الأقل فيما يخص أفغانستان، فإن مشاركة العرب في الحرب لم يكن لها أي شأن. فالمقاومة الأفغانية كانت شديدة التسلح والتمويل من مؤيديها – الذين توسعوا ليشملوا الصين واليابان وبريطانيا العظمى، وإسرائيل بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية والسعودية وباكستان – وقد أثبتت قدرتها على دحر الجيوش السوفييتية بمفردها. وغاص السوفييت، كما كان يأمل بريجنسكي، في الرمال المتحركة الأفغانية أعمق وأعمق، فيما أصبح يشكل النموذج السوفيتي من كابوس فيتنام. وبدلاً من أن يكون التدخل سريعاً وحاسماً، استمرت الحرب عاماً بعد عام، وتضاعفت أعداد القتلى والجرحى

وتزايدت الانتقادات من الداخل. وكانت تكاليف الحرب باهظة جداً، وكان الاتحاد السوفييتي، ومن غير دراية أعدائه في الغرب، على وشك انهيار اقتصادي مرعب.

وعندما جاء غورباتشوف إلى السلطة عام 1985، قرر فوراً أن الحرب في أفغانستان لا يمكن فيها النصر. وحتى قبل مجيء غورباتشوف إلى الحكم، حاول السوفييت التفاوض بشأن ترتيبات لإنها الحرب ولكن دون جدوى، ويعود السبب في جزء كبير منه إلى إصرار السوفييت على وضع حكومة موالية لهم في أفغانستان. وأصر الباكستانيون طوال الحرب أن أي حكومة أفغانية مستقبلية يجب أن تضم الأحزاب الأصولية التي كانوا يرون فيها أدوات لتحقيق أهدافهم. ومن الناحية الفعلية كانت باكستان تسعى للسيطرة على مستقبل أفغانستان. وبدلاً من المشاركة في المفاوضات مع السوفييت، صعد مؤيدو المقاومة من دعمهم العسكري والمالي للمقاومة. فمثلاً، قامت الولايات المتحدة الأمريكية عام 1985 بتزويد المجاهدين بصواريخ ستينجر المضادة للطائرات والتي تطلق عن الكتف. وهي المرة الأولى التي يتم فيها تزويد طرف خارج نطاق حلفاء أمريكا بمثل هذا السلاح[42]. ومع نهاية عام 1986، ودون علم المقاومة الأفغانية، قرر غورباتشوف الانسحاب من أفغانستان بنصر أو دونه. وفي عام 1988 بدأت القوات السوفييتية بالانسحاب الفعلي[43]. وفي فبراير/ شباط من عام 1989، غادر آخر جندي سوفييتي الأراضي الأفغانية، وانتهت المغامرة السوفييتية في أفغانستان، وبانتهائها قارب فصل من تاريخ العالم على الانتهاء.

بعد فشل السوفييت في التفاوض على الانسحاب[44]، تركوا خلفهم حكومة موالية لهم بزعامة مدير المخابرات محمد نجيب الله؛ ولذلك لم تتوقف الحرب، ولم تخف وطأتها. وتحولت إلى حرب للأفغان ضد الأفغان، دون

مساعدة من الخارج. وكانت حكومة نجيب الله هشة لدرجة أن بعض العناصر داخل المقاومة كانت تعتقد بإمكانية الإطاحة بها بضربة واحدة. وكانت الخطة التي اقترحها سياف وأيدتها بشدة الاستخبارات الباكستانية تقضي بشن هجوم مباشر على مدينة جلال أباد جنوب شرق أفغانستان. وهي المدينة الأفغانية الرئيسة الأقرب إلى بيشاور، وهي بهذا الوصف كانت هدفاً طبيعياً للهجوم. وكان للمقاومة أن تستخدم كل باكستان كمنطلق للقوات المهاجمة.

ويقول روبرت أوكلي، السفير الأمريكي في باكستان في ذلك الوقت: "كانت الفكرة وراء جلال أباد هي تحقيق نصر معنوي كبير". وكان الهجوم يحظى بدعم رئيسة وزراء باكستان الجديدة بناظير بوتو. وفي واقع الأمر، كانت بناظير تحضر الاجتماعات الرئيسة التي عقدت في إسلام أباد حيث وضعت الخطة موضع التنفيذ. ويضيف قائلاً: "لقد أبدت بناظير موافقتها على كل ما اقترحه جهاز الاستخبارات الباكستاني. لم يكن أمامها أي خيار. وأرادت أن تظهر نفسها بمظهر القوة وعدم المهادنة. وكان سياف في واقع الأمر هو الشخص الذي يدفع باتجاه الهجوم. فقد كانت المنطقة منطقته، والصفقة صفقته. لم نحاول أن نوقف الفكرة، لقد ظننا أنها ستنجح"[45].

وكانت تقديرات ميليت بيردن، رئيس عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في باكستان أقل تفاؤلاً حول احتمالات نجاح الخطة. وكان يرى أن بوتو كانت هي المروج الرئيس للفكرة، لأنها كانت ترغب بتحقيق نصر يكون ورقة رابحة في يدها عندما تتوجه إلى طاولة المفاوضات الدولية. وقال بيردن: "لقد ضغطت بوتو على الاستخبارات الباكستانية". ويضيف، "لم نكن بحاجة إلى تلك الخطة. وأنا شخصياً لم أكن بحاجة إليها. وكان هناك دائماً أطراف ذات مصالح. لقد كانت فكرة سيئة للغاية. واتصل بنا اللواء يوسف [من الاستخبارات الباكستانية] متسائلاً لماذا كنا نفعل ذلك، وقال - إنها فكرة سيئة -

وبصراحة، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA لم تكن لتتصرف على ذلك الوجه. كنا سنفضل التفاوض حول شيء ما في تلك اللحظة. وبعد 15 فبراير/ شباط [والانسحاب السوفييتي] فإنني أميَل إلى عقد الصفقات"[46].

لم يكن هناك أحد آخر يميل أو يرغب بعقد أي صفقة. فقد كان شعور الجنرالات الأمريكيين والباكستانيين الذين يراقبون الأوضاع أن حكومة نجيب الله ستنهار على قدميها في وقت قصير. وبخاصة بعد توجيه ضربة إليها.

ابتدأت معركة جلال أباد في الربيع. وكان الهدف منها السيطرة على المدينة والمناطق المحيطة بها وإعلانها عاصمة مؤقتة وتشكيل حكومة مؤقتة تتكون من زعماء فصائل المقاومة"[47]. لا تبعد جلال أباد كثيراً عن بيشاور. وكان الباكستانيون يظنون أن بمقدورهم السير بالحكومة الجديدة وتوصيلها إلى جلال أباد بكل بساطة، وأن الحكومة في كابول ستسقط فوراً نتيجة لذلك. وتهيأ عدة آلاف من المجاهدين للهجوم. وفي لفتة نادرة من الشمولية، رافقتهم عدة مئات من العرب. وكانت المعركة من أكبر المواجهات الثابتة في الحرب. وكانت بالنسبة للمقاومة واحدة من أكبر المصائب التي منيت بها. أوصل الاندفاع الأولي من الهجوم المجاهدين إلى مشارف المطار وتوقف هناك. وضربوا حول المدينة حصاراً ظناً منهم أنها لن تتمكن من الصمود لأكثر من أسبوع. إلا أن الحصار استمر لمدة شهرين. وأمطرت قوات الحكومة الأفغانية مواقع المقاومة بوابل من الصواريخ وحصدت منهم الآلاف[48]. وكما كان يحدث في معظم تلك الحرب، كان هناك قليل من الاعتبار للمدنيين الذين وجدوا أنفسهم في تقاطع خطوط إطلاق النيران. فماتوا بالمئات. وفر آلاف من اللاجئين من المدينة تجاه باكستان. وكتب أحد الجنرالات الباكستانيين فيما بعد واصفاً الهجوم بأنه خطأ في التخطيط وخطأ في التنفيذ: "كانت الشحنات الأمريكية وبشكل كبير أقل من اللازم، ولم يتم إعادة بناء احتياطيات

الذخيرة بعد الفاجعة في مخيم أوجهري قبيل بدء الهجوم، ولم يكن هناك تأمين كاف للإمدادات قبل بدء الهجوم، وقليل من التخطيط المبكر. ولم تكن الحكمة الاستراتيجية من مهاجمة جلال أباد محل شك وحسب، بل سرعان ما تبين عدم كفاية تخطيط وتنفيذ وإدارة الخطة برمتها... لقد ارتكبت الاستخبارات الباكستانية وقادة المقاومة الأفغانية خطأ إستراتيجياً حين تحولت من حرب العصابات إلى الحرب النظامية الشاملة بهذه السرعة... ومن الناحية التكتيكية، كان ذلك مثالاً واضحاً في كيفية عدم خوض المعارك"[49].

مني المقاتلون العرب بخسائر فادحة أيضاً. وكان عابد شيخ محمد الأخ الأصغر للأخوة البلوش من الكويت من بين قتلى المعركة. ورثاه عبدالله عزام بمقالة منمقة قال فيها[*]:

"صعدت أرواح أفضل الدعاة إلى بارئها، ورحل إليه أفضل الناس في هذا الشهر، وتركت جلال أباد وهي تبكي، - هل بقي مزيد من الوقود لمعركة الإيمان؟ ويا نانغرهار [اسم المقاطعة التي جرت فيها المعركة]، هل رويت عطشك من دماء الأبرار؟ ألم يكفك ما ابتلعتيه من قبور الأتقياء؟ حسبك! حسبك! لقد ذهبت بفلذات أكبادنا وأورواحنا - رفضت روح [عابد] أن تعيش حياة الترف تحت مبردات الهواء في وقت يقتل فيه أخوته في الدين وسط لهيب صيف بيشاور بمعدل 100 شخص في اليوم. فكيف يرضى الأسد أن يبقى مقيداً في حديقة الحيوان، ليعرض على الناس من أجل التسلية؟ وجب عليه أن يكسر أغلاله ويعود إلى عرينه، وتلحق به بقية الأسود"[50].

بعد جلال أباد، بدأت مختلف فصائل المقاومة التي فقدت الآن عدوّها المشترك [السوفييت] بمقاتلة بعضها إلى جانب قتالهم حكومة كابول. واتهم

(*) ترجمة عن النص الإنجليزي في الكتاب.

حكمتيار الذي كان لا يزال يتلقى الدعم من الولايات المتحدة وباكستان بتدبير عمليات اغتيال وتصفية لمنافسيه والقادة الانفصاليين في حزبه. واندلعت حرب بينه وبين مسعود. وكانت تلك الحرب بداية نقطة الانحدار في صراعات داخلية التهمت البلاد والعباد على مدى عقد من الزمان. وبتوجيه الأفغان أسلحتهم ضد بعضهم بعضاً، انشغل الأفغان العرب في بيشاور في جدل حول مستقبل حربهم المقدسة. فالسوفييت قد ذهبوا. وإذا كان هدفهم الأسمى هو تخليص البلاد من الشيوعيين، فهل يجب إعلان انتهاء الحملة بانتهاء المهمة؟ قسم كبير من العرب، ومن ضمنهم أسامة بن لادن، كانوا يرون أن واجبهم الآن هو نقل الجهاد إلى أوطانهم، آخذين معهم العبر والدروس التي تعلموها في أفغانستان، وأن يصروا على أن يحكم القانون الإسلامي بلادهم. أما عزام فكان يرى الحاجة إلى متابعة المسيرة، وتركيز مواردهم وطاقاتهم نحو تحقيق حكومة إسلامية في أفغانستان. وإلى أن يتم ذلك، فلن يكون هناك أي نصر. وحاول عزام أن يتفاوض على هدنة بين مسعود وحكمتيار لتحقيق سلام بينهما. ولكن ككل شخص حاول التفاوض لإنهاء النزاع في أفغانستان، باءت جهوده بالفشل.

ودار جدال مشابه بين أجهزة الاستخبارات الأمريكية والدبلوماسيين الأمريكيين حول الدور الأمريكي المستمر في أفغانستان: في ظل رحيل السوفييت، من هي الجهة التي يجب على الولايات المتحدة أن تقدم لها الدعم؟[51] على المدى القصير، تبنّت مختلف الوكالات الأمريكية عدة إستراتيجيات في أفغانستان، كانت محصلتها دعم كل الأطراف[52]. وعلى المدى البعيد، قررت الولايات المتحدة أن من الأفضل لها أن لا تدعم أحداً، وتركت الأفغان ليواجهوا مصيرهم ومكائد الباكستانيين بأنفسهم. وشعر عدد كبير من قادة المقاومة أن الولايات المتحدة وبعد الانسحاب السوفييتي كانت تعارض بفعالية إقامة حكومة إسلامية في كابول. وكان هذا الموقف في نظر

بعضهم يشكل أقسى أنواع المعاملة. فعندما خرج الأمريكان، لم يقولوا حتى وداعاً. كما يقول أحمد شاه أحمد زادي أحد نوّاب سياف.

ولاحقاً في ذلك العام، اغتيل عبدالله عزام - المؤسس الحقيقي - للمقاومة الجهادية العربية، مع اثنين من أبنائه عن طريق سيارة مفخخة في شارع أرباط في بيشاور خارج مسجد سبع الليل أثناء توجههم لأداء صلاة الجمعة. ولم يتم الكشف حتى الآن عن لغز تلك الجريمة. وبدأ المناخ السياسي والديني بالتغير في بيشاور، وتنامت مشاعر الاستياء من التخلي الأمريكي. وسيطر ابن لادن على مكاتب الخدمات. وحل محل عزام كقائد للمجاهدين العرب، على الأقل في التصور العام وفي خياله هو شخصياً. وحتى قبل وفاة عزام، كان ابن لادن بدأ بتجنيد الرجال في مجموعة جديدة لحمل الجهاد إلى ما بعد أفغانستان[53]. وأطلق على تلك المنظمة القاعدة[54]. ثم جاء الاجتياح العراقي للكويت عام 1990، وما أعقبه من الحملة المضادة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والتي عمقت من الفرقة والانقسام داخل العالم العربي. وكان ابن لادن حانقاً على الأسرة الحاكمة السعودية التي سمحت للولايات المتحدة بتركيز قوتها في المملكة واتخاذها قواعد عسكرية فيها مخالفة بذلك حكماً شرعياً يقضي بعدم السماح للكفار بدخول الأرض المقدسة[55]. وقام بمواجهة الأسرة الحاكمة مقترحاً عليهم تكوين جيش مقدس لحماية المملكة. وطبعاً رفضت الأسرة الحاكمة السعودية التي كانت مندهشة من سذاجة ابن لادن عرضه هذا[56]. ثم بدأ بمهاجمة الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية في خطاباته، قائلاً بأنه لا يوجد فرق بين السوفييت والأمريكان - لأنهم جميعاً كفرة وسيلحقهم مصير واحد هو الاندحار تحت موجة الإسلام القادمة.